

عنتره فى سجل التاريخ

من هو عنتره ؟

لقد شهد تاريخ العرب أروع صور الفروسية ، وأصدق مُثل العزة والشجاعة والكرامة ، وأخلد ملاحم البطولة والتضحية والشهامة ، سواء كان ذلك في عهود جاهلية العرب أم بعد بزوغ فجر الإسلام .

وعنتره الذى نتحدث عنه - في هذا الكتاب - مثلُ صادق من أمثلة الفتوة العربية في عهد ما قبل الإسلام ، وعلم شامخ من أعلام القوة والنضال والجلد عند استعمار وطيس الوغى واشتعال نار القتال .

قرمُ عارم وبطل قاحم ، تنفست عنه أرياض نجد ، فإذا لاسمه في العرب دوىً دونه هزيم الرعد ، وإذا لذكره طنين يغمر كل الآذان ، ويصيخ له سمع الزمان !

هل حمى الذمار ، وصان حوزة الديار مثل عنتره الفلحاء^(١) ؟

وهل صابر الهيجاء والقيظ حجرة ، وصالو القساورة الأشاوس مثل عنتره الفوارس ؟

وهل ورد المعامع ، وعف عن المغانم والمنافع مثل أبي المغلس^(٢) ؟

وهل أدار رحى الوغى ، وشن الغارات ، وارتخص في سبيل مجده النفس مثل فتى

عبس ؟

وهل صدح بشعر العرب الحماسى فكان به صناجة الزمان مثل عنتره الهيجاء ؟

لقد كانت حياة أسد البيداء ، وقاهر الصحراء ، سلسلة انتصارات رائعة سطرت أمجاده في

التاريخ ، بحروف متألقة ، وجعلته أسطورة من الأساطير تتحدث عنها الأجيال وتفاخر بها القرون ! .

وإنه ليكفى عنتره فخراً وشرفاً ما حكى من أن أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال : حدثنا

عمر بن شبة قال ، حدثنا ابن عائشة قال ، أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قول عنتره :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله حتى أنالَ به كريم المأكَل

فقال : ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنتره^(٣) .

(١) لقب لعنتره لقب به لتشفق في شقته .

(٢) كنية لعنتره وله كنيتان أيضاً هما أبو المايش وأبو أرقى . ذكر أولاهما المستشرق أرنولد Arnold والأخرى المستشرق

منيل Menil .

(٣) مقدمة الديوان . أبو الفرج الأصبهاني / الأغاني ج ٨ ص ٢٤٣ ط دار الكتب ، الأب لويس شيخو / شعراء

النصرانية ج ١ ص ٧٩٧ ، الألوسى / بلوغ الأرب ص ١١٧ ط . الرحمانية ، أسامة بن شاعر / لباب الآداب تحقيق أحمد

شاعر ص ٢١٧ ، ناصر الدين الأسد / مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية ص ٢١٣ ، نشر دار المعارف عام ١٩٥٦ .

كما أنه لا مرأى مُطلقاً في أن عنترَةَ كان أشهر فرسان العرب في الجاهلية^(١) . وأبعدهم صيتاً وأسيرهم ذكراً ، كما كان من أحسن العرب شيمة ، ومن أعزهم نفساً^(٢) وأجودهم بما ملكت يده^(٣) وأوفاهم بالعهد ، وأنجزهم للوعد !

نشأته وبيئته وعشيرته :

نشأ عنترَةَ نشأة العربي الأبيّ في صحراء نجد ، بعيداً عن ترف المدينة وصخب الحضارة ، كما ينشأ سائر قومه « بني عبس » . وقد أكسبته بيئته الصحراوية بساطتها وصراحتها ، وعجمت عوده على الصبر والجلد وشدة البأس وقوة المراس . تلك بيئته لها طبيعة الصحراء وسحرها وامتدادها ، ولها قيظها وقرها ، كما أن لها كنفها الموطأ . فالصحراء إلى جانب صلابتها وعنفها ووعورتها لها رقة أنسامها اللطاف وإشراقها وبشرها . إنها دنيا تسبح فيها أخيلة الشعراء ، وتلتقى أفكارهم في مسارحها صافية أنيقة ، لأنها عالم صيغ من الصفاء والنقاء ، وخلص من التعقيد والتكلف ، عالم بكر تستحم فيه الأنجم الزهر ، وتنعكس عليه أشعة القمر ودِعة حلوة تبادلها الأمنيات ، فإذا صافحته الشمس بحرارتها ويقظتها التمعت ذواته ، وتألفت جنباته ، وحلا المقام به في مخيم جميل ... وساكنو الصحراء قوم خلصوا للحياة حرة باسم لا تعرف من أضرار المدينة شيئاً ، فهم بساطتهم وبعدهم عن التكلف والتظرف ، صحاء بالطبيعة ، طلقاء بالقطرة ، ذوو نجدة وكرامة ، وذوو عزة وأنفة ، يحمون الجار ويحفظون الذمار ، وإذا دارت الحرب هتفوا لها : البدار البدار^(٤) .

ولم تخل نشأة عنترَةَ من العقد النفسية ، فقد نَجَله أبُّ من أشراف القوم وأعلامهم نسباً ، ولكن هجنته جاءت من ناحية أمه الأمة ، ولم يكن أبن الأمة بالذي يلحق بنسب أبيه إن لم يبرز تبريزاً واضحاً في نواح من حياته ، تشهد بعظمة شخصيته وأحقّيته للشرف الرفيع ، وإلا ظل عبداً لا فرق بينه وبين باقي العبيد الذين يقتنون بالمال^(٥) .

(١) كارل بروكلمان / تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ح ١ ص ١١ نشر دار المعارف .

(٢) الزركلي / الأعلام ح ٢ ص ٧٤٤ .

(٣) ابن قتيبة / الشعر والشعراء ح ١ ص ١٧٢ ، فؤاد أفرام البساق / عنترَةَ بن شداد ، وأحمد الاسكندري ومصطفى

العنانى / الوسيط في الأدب العربي راجع ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٤) الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ح ١ ص ٧٩٤ ، وأبو الفرج الأصبهاني / الأغاني / ح ٨ ص ٢٣٧ .

اسم عنتره :

بعض من الناس يسمون « عنتره » عنترأ وربما أغراهم بذلك قوله :
ولقد شفى نفسى وأبرأ سُقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم !

وقوله :

يدعون عنتر والرّماح كأنها أشطانُ بشرٍ في لَبانِ الأذمّ

وقد شرح التبريزى هذا البيت بقوله : « ويروى عنتر - أى بالضم - فمن رواه بفتح الراء فإنه رخم عنتره وترك ما قبل المحذوف على حاله مفتوحاً ، ومن روى عنتر وضم الراء أحتمل الوجهين : أحدهما أن يكون قد جعل ما بقى اسماً على حاله ، إلا أنه قد صار طرفاً كحرف الإعراب ، والثاني : ما رواه المبرد عن بعضهم أنه كان يسمى عنترأ ، فعلى هذا الوجه لا يجوز إلا الضم ، هكذا ذكره النحاس ، ويجوز أن يكون عنتر على هذا الوجه منصوباً بيدعون^(١) . ويذكر شارح القاموس أنه « قد يكون اسمه عنترأ كما ذهب إليه سيويه » ؛ ولماذا منع من الصرف أى التنوين ؟ على أن المتواتر فى الكتب المعتمدة وما عليه الكثيرون هو أن اسمه « عنتره » لا « عنتر » والعنتره السلوك فى الشدائد والشجاعة فى الحرب وهذا أقرب إلى مسمى بطل عيس .

وباسم عنتر سُمى آخرون ، فهناك شاعر جاهلى هو الحنوت توبة بن مضر بن عبيد الشاعر ، يقول فى صاحب له اسمه عنتر وآخر اسمه مرداس :

سأبكى خليلي عنترأ بعد هَجْعة وسيفى مرداساً قتيلاً قنان^(٢)
قتيلان لا تبكى اللقّاح عليهما إذا شربت من قومل وأفان^(٣)

وهناك عنتر التميمى جد أبى الفضل عبد الملك بن سعيد بن تميم بن أحمد بن عنتر شيخ ابن عساكر .

= ابن عبد ربه فى العقد الفريد ، أن من فرسان العرب فى الجاهلين عنتره بن شداد ، وعنتية بن الحارث بن شهاب ، وأبو براز عامر بن مالك ملاعب الأسمّة ، وزيد الخليل ، وسيطام بن تيس ، والأخيمر السعدى ، وعامر بن الطفيل ، وعمر بن عبد وعمر بن معد يكرب (راجع العقد الفريد ص ٨٣ ح ١ تحقيق الزيادة) .

(١) التبريزى / شرح القصائد العشر ص ٢١٥ ، ط إدارة الطباعة المنيرية .

(٢) قنان جبل لبنى أسد لا يزال معروفاً بهذا الاسم فى غرب بلدة « الرس » فبا بينها وبين المدينة وهو إلى « الرس » أقرب .

(٣) القومل شجرة ذات سويقة لا تستر والأفان غيره من الضب .

وسمى باسم عنتره كذلك : عنتره بن عروس التقفى وكان مولداً ، وعنتره بن عكبره الطائى^(١) ، والمتواتر وروده هو بلا شك أقرب إلى الصحيح ، فهو إذن عنتره .

نسب عنتره :

وعنتره هو ابن عمرو بن شداد وإن غلب اسم جده على اسم أبيه^(٢) ، وقيل : شداد عمه ابن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ، وقيل : مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عيس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر^(٣) ، وأما ألقابه وكانها فكثيرة ، وقد سبق ذكرها ، وأم عنتره هى زبيبة الحبشية ، وله منها إخوة عبيد من غير أبيه^(٤) .

مدارج صباه ومطالع شبابه :

ولد عنتره فى الربع الأول من القرن السادس الميلادى^(٥) . وقد ذاق عنتره ، مثل أترابه ورفقائه فى صباه ممن لم يستحلفهم أبأؤهم بأنسابهم ، مرارة الحرمان وقسوة العيش ومهانة الدار ، فقد كان أبوه هو سيده يعاقبه أشد عقاب على ما يقترفه من هنات هيئات ، وكانت سمية زوج أبيه لا يلذ لها شىء كما يلذ لها أن تدس له عند أبيه ، وتحوك له من المكائيد ما يجعله عرضة لصارم العقاب ، ويوقع به أعنف العذاب ، ومن ذلك أنها حرشت عليه والده مرة وقالت له : إن عنتره براودنى عن نفسى ، وما كان أشنعها سبة ، غضب لها أبوه غضباً شديداً وعصفت برأسه حميته ، فألصقه الثرى وضربه ضرباً مبرحاً بالعصا ، وأتبعها السيف ، ولكن سمية أدركتها الرحمة آخر الأمر فارتقت عليه باكية تمنعه ضربات أبيه ، وتذود عنه حر وذباب السيف ، فرق لذلك أبوه وكف عنه ، ولعله أدرك أن تلك إحدى مكائدها للفتى ، ولكن هذه الحادثة أنطقت عنتره شعراً معبراً يصور فيه مأساة صباه حيث قال :

أَمِنْ سَمِيَةِ دَمَعِ الْعَيْنِ مَذْرُوفٍ لَوْ أَنَّ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفِ

(١) الأمدى المؤلف والمختلف ص ١٥١ و ١٥٣ « وشرح القاموس » : (عتر) .

(٢) مخطوط « مختصر جمهرة النسب » ص ١٢٩ وحاشيته نسخة الإدارة الثقافية معهد المخطوطات : « بلوغ الأرب » ج ١ ص ١٢٦ ، « الأعلام » ج ٢ ص ٧٤٤ ؛ « خزنة الأدب » ج ١ ص ٦٢ ؛ « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٨ ، وراجع « المحبر » لمحمد بن حبيب ص ٣٠٧ و « الأغاني » ج ٨ ص ٢٣٩ ؛ و « الشعر والشعراء » ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) أبو الفرج الأصبهاني / الأغاني ج ٨ ص ٢٢٧ ، الأمدى / المؤلف والمختلف ص ١٥١ م القدسى ، ابن حزم /

جمهرة أنساب العرب ص ٢٣٩ نشر دار المعارف .

(٤) عبد القادر البغدادى / خزنة الأدب ص ٦٢ .

(٥) نيلب حق / تاريخ العرب (مطول) ص ١٢١ .

تَجَلَّتَنِي إِذْ أَهْوَى الْعَصَا قَبْلِي كَأَنَّهَا صَنَمٌ يَعْتَادُ مَعَكُوفُ
 الْعَبْدُ عَبْدَكُمْ وَالْمَالُ مَالَكُمْ فَهَلْ عَذَابُكَ عَنِّي الْيَوْمَ مَصْرُوفُ
 تَنْسَى بِلَائِي إِذَا مَا غَارَةٌ لَحَقَتْ تَحَرُّ مِنْهَا الطَّوَالَاتُ السَّرَاعِيفُ
 يَخْرُجُنُ مِنْهَا وَقَدْ بَلَّتْ رِحَائِلُهَا الْمَاءُ تَرَكُّفَهَا الشَّمُّ الْغَطَارِيفُ
 قَدْ أَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النَّجْلَاءَ عَنْ عَرْضِ تَصْفَرُ كَفَّ أَخِيهَا وَهُوَ مَنْزُوفٌ^(١)

وهو شعر فيه استعطاف ، وفيه اعتزاز بمشاركته في حرب أبيه ، وتذكير بمواقفه منه ، وتفانيه في خدمته واستنائه في نصرته .

على أنه لم يمر طويل وقت حتى وجد أبوه نفسه مضطراً إلى الاعتراف بعنترة ، وإلى الفخر بتصحيح نسبه إليه ، وذلك أن قبيلة طيئ أغارت على بني عيس ترد ثأراً لها عندها ، إذ سبق لعيس أن غزتها واستاقت إبلها ، وكان عنترة مع قومه في حومة النزال ، ولكنه اشترك مدافعاً لا مهاجماً ، وقيل : إن سبب ذلك أنه ساهم من قبل في غزو طيئ ، ولكنهم بخسوه حقه في الغنيمة ، إذ فرضوا له نصيب العبد منها وهو النصف فأباه ، ومن ثم تقاعس عن خوض المعركة ، واشتد الخطب على عيس حتى كادت أن تسلب خيراتها وتدور عليها الدوائر ، وحينئذ هتف بعنترة أبوه أن كرّ يا عنترة ، ولكن عنترة الذي أوهت نفسه العبودية ، وأذله الرق ، والذي شوى قلبه ما كان يصيبه من تعبير وما يناله من هوان : إجابته دون مبالاة : العبد لا يحسن الكرّ إنما يحسن الحلاب والصر ... وحينئذ لم يجد أبوه بدا من أن يعطيه اعتباره ، ويلهمه الثقة بنفسه فصرخ فيه فيه : كرّ وأنت حرّ ، فكر عنترة يملؤه الزهو والفخار منشداً :

أنا الهجين عنترة كل امرئ يحمي حره
 أسوده وأحمره والشعرات المشعره

الواردات مشفره^(٢)

وقاتل عنترة كما يقاتل الأبطال الذين يحمون عريتهم ، ويدودون عن حماهم أن يداس أو تطأه أرجل الأعداء ، وكانت الغلبة لفتى عيس الذي سرعان ما احتفلت القبيلة به ، وكرّمت فيه فارسها المعلم ، وسبلها بل ليثها المناضل^(٣) .

(١) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٣٨ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ح ١ ص ٧٩٤ ، الديوان ص ١٠٩ .

(٢) الواردات : الطويلة ، أبو القاسم الزمخشري / أساس البلاغة مادة ورد ص ٢٨١ ، ابن قتيبة / الشعر والشعراء ، راجع ح ١ ص ٢٠٥ .

(٣) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٣٩ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ح ١ ص ٧٩٥ .

وكان عنتره ، بعد ذلك ، إذا مُسَّتْ كبرياؤه ، أو جُرحت مشاعره من ناحية أمه ، رد على ذلك بأنه إن تكن أمه جارية من الإماء ، فإن أفعاله وشيئاته وشجاعته كل أولئك يعوّض ما نقصه من جهة النسب ، ولاسيما أن أباه من خير عيس حسباً ونسباً ، وفي ذلك يقول :

إني أمرؤٌ من خير عيس منصباً شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبةُ أحجمت وتلاحظت ألفت خيراً من معمٍ مخول

فهو يفخر بجلائل عمله ، وباهر خلاله وصدقه منازلة الأعداء إذا ثار النقع ، وانهقد غبار المعارك ، إذ هو في المعمة بإقدامه ، وجراءة جنانه خير من المنسب ذى الخوولة والعمومة^(١) .

حياته :

ماذا عسى أن تكون حياة عنتره ؟ شاب مفتول العضل ، قوى الساعد رده اعتبره ، فانتسب إلى بيت من خير بيوت عيس وأعلاها ، ونبغ في قبيلة بارزة عظيمة الخطر من قبائل العرب هي قبيلة « عيس » ، وتلمسه قومه فإذا هو أشجعهم قلباً ، وأقوى فرسانهم بطشاً ، وأكثرهم بصراً بفنون الحرب والقتال . وعيس قبيلة تحب الغزو وتتعشقه كمثيلاتها من قبائل العرب ، فسرعان ما دوى ذكر فارسها في الآفاق ، وتناقلته الأفواه ، وتحدثت عنه الركيان ، فإذا بعنتره البطل الموهوب ترتعد لذكره الفرائص ، وتحسب له القبائل ألف حساب . كان يكرّ كربةً الليث المصور ، لا تقف أمامه عقبة أو تحول دون طريدته حائلة ، وكانت له فراسة تصيب ولا تخطئ . وكأنما ألهم نفسيات الرجال ، وعرف كيف يتوغل أسرارها ، ويكتنه دخائلها ، ويصل إلى مواطن القوة والضعف فيها ، إنه يجول في المعركة ويصول ، فإذا أبصر الجبان حائراً يترقب نهد إليه معجلاً وعاجله بالضربة القاصمة أو الطعنة الهائلة ، فإذا هو لقي يتشحط في دمه صريعاً كالشاة ، ويبصره الشجاع فتهتز نفسه لمنظره - وهذا شعور طبيعي في النفس - وحينئذ يكون عنتره له بالمرصاد ، فلا يمهله حتى يسترد رباطه جأشه ، بل يلحقه بالجبان ليزوج بينها ، ويخلد له ذكراً تنخلع له القلوب ، وتتطامن له النفوس ، وتحقق له الأفتدة .

وكان يتجنب المزالقي فلا يلقي بنفسه إلى التهلكة ، فهو يقدم إذا رأى الإقدام عزمياً ، ويحجم إذا رأى الإحجام حزمياً ، ولا يدخل إلا موضعاً يرى له منه مخرجاً ومنفذاً^(٢) ، ولاشك أن ذلك

(١) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ج ٨ ص ٢٤٠ ، أسامة بن منقذ لياح الآداب تحقيق أحمد شاكر ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ج ٨ ص ٣٤٤ الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ج ١ ص ٧٩٨ .

من أقوى الأسباب التي جعلت من عنزة أشهر فرسان العرب المحنكين في زمانه . فالخذر ووزن الأمور مما يعين على الانتصار ، ويرد عوادي الهزيمة والانكسار ، ولا أدل على ذلك مما فعله خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وهو الذي لم تهزم له راية قط . وذلك في غزوة مؤتة حيث جعل الرسول صلى الله عليه وسلم إمرة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن قتل جعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . وكان جيش الكفار يربو على مائة ألف ، أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف ، وأنى لهذا العدد الضئيل أن يثبت لعدوه الكثير العدد والعدة ، وكان مالا يد منه ، فقد التحم الجيشان ، فإذا أمراء جيش المسلمين وهم طليعة المجاهدين في سبيل الله يصابون مستشهدين الواحد تلو الآخر ، ورأى خالد هول الموقف فكان أن تسلّم الراية ، وصار يرجع إلى الوراء رجوع القائد الخبير حتى انحاز إلى مؤتة ، ومكث يناوش الأعداء سبعة أيام انقطع بها القتال حيث ظن العدو أن المسلمين تتوالى عليهم الإمدادات ؛ وقد كان ذلك بالطبع عملاً باهراً من أعمال خالد القائد الفذ ، إذ أنه لو استبسل مقدماً ومن معه لعرضوا أنفسهم لموت محقق ، وللاستشهاد عن آخرهم . فليس عدوهم بالذي يستهان بخطره ، وجاء نعي الرسول عليه السلام لقواد هذا الجيش ، خير مصداق لما كسبه خالد من نصر مؤزر في تراجع بجنده الله من إطباق العدو عليهم حيث قال : « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عيناه تذرطان ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

فاعتد ذلك نصراً وكسباً للمسلمين ، وفتحاً من الله عليهم سببه لطف الله بهم ، ثم تصرف خالد الحصيف ، وهكذا تكون القيادة والريادة^(١) .

وهناك سبب كان من أقوى الأسباب التي حفزت عنزة إلى خوض الشدائد ، وعلى قول الشعر ، ألا وهو حبه الجائح لآسرة لبه ومالكه فؤاده « عيلة » بنت عمه مالك بن معاوية ، وسيأتي الحديث عن ذلك الحب فيما بعد ، ولاشك أنه من هموم الشباب في حياته ، وهل سلمت حياة الشبان من خطرات العاطفة وسواس الوجدان ؟ إنها ركاز القلب وحافز الهمة ، وما أعظم خطر الحب وأبعد مداه في حياة الخالدين المبرزين !

(١) « الطبرى » ج ٣ ص ١٩٧ : « نور اليقين » ص ٢٠٤ ، « السيرة الحلبية » ج ٣ ص ٧٦ ، « سيرة ابن هشام »

ج ٣ ص ٤٢٧

محمد الحضرى / محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ح ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ط ٤ ، ابن رشيقي تحقيق محمى الدين عبد الحميد /

العمدة ح ١ ص ١٩ .

ملامح وسمات شخصية

يتمثل عنتره لعارف خبر بطولته وفروسيته ، ولقارئ شعره عملاقاً ضخماً الجسم ، عظيم الهامة ، عبل الذراعين ، ملتحم العينين ، حاد النظرات ، حسن القسمات ، مفتول العضلات ، صلب العود أسود اللون .

ثم هو أبى لا يقبل الضيم ، حسّاس ذكى الفؤاد ، وفي لا يطيق العقوق ، جواد وافر السخاء ، شجاع قوى الأسر ، إذا جد الخطب ألفتبه طليعة القوم ، يحمل حملة الرئبال ، ويكر كرة القسورة ، تتحاماه الفرسان ، وتكره لقاءه الأقيال ، وإذا نهد لعدوه فكأنه القضاء المسلط ، أو الشهاب المنقض ، أو البركان المتفجر ، أو اللهب النائر .

ثم هو صاحب مرءة ونجدة ، لا يستبى النساء ويعاف المغانم ، ويحفظ الحرمات ، ويرعى الجوار ، ويقبل العثرات ، ويتسامح فى الزلات . وهو إلى ذلك داهية فى الرأى ، صاحب قول ومشورة ، ظاهر فى قومه ، مبرز فى عشيرته موضع أمل وموئل رغبة . كما أنه فى الحرب حامى القبيلة ، وفارس القوم وقائدهم يحتمون به إذا عتا الكرب ، وحى الطعن والضرب .

كل هذه الصفات خَلْقِيَّةٌ وَخُلُقِيَّةٌ مكنت له شهرته فى الناس ، ومكانه فى القلوب ، وهيبته عند الأعداء ، واقتعاده ذروات المجد .

صور من شمائله فى شعره

يفضل عنتره الاستقلال فى الرأى ، وأن يكوّن الفتى لنفسه نهجاً من ذات نفسه ، يحث خطاه إليه لا يقوده إليه قائد ، أو يحمله عليه غيره ، كما يستحث الفتيان على أن يخوضوا الصعاب ، ويقتحموا الأزمات بفؤاد ذكى وأنف حمى ، وأن يجعلوا همهم قرى الضيفان ، وحل ما يعترض طريقهم من مشكلات فلا تتبدد طاقتهم عند هبوب ريح النكبات والمصائب ، ولا تفزعهم الأعاصير ، وإلا كان الموت خيراً من حياة تطير نفس صاحبها شعاعاً عندما تحل به المعضلات ، وتزجه الكوارث ، وليس له من نفسه مرشد أو هاد :

وللموت خيراً للفتى من حياته إذا لم يشب للأمر إلا بقائد
فعالج جسيات الأمور ولا تكن هيبت الفؤاد هم للوسائد
كفى حاجة الأضياف حتى يُريحها عن الحى من كل أروع ماجد
تراه بتفريج الأمور ولقها لما نال من معروفها غير زاهد

وليس أخونا عند شرٍّ يخافه ولا عند خيرٍ إن رجاه بواحد
إذا قيلَ مَنْ للمعضلات أجابه عظامُ اللهى منأ طوال السواعد^(١) ؟ !

وهو لا يقبل الحياة مازجها الهوان مها تكن المغريات ، فهى فى حلقه غصص وشجى :
لا تسقى ماء الحياة بذلةً بل فاسقى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعز أطيّب منزل^(٢)

وهو يحب الخيل ويتألفها ويرى أنها مانعة الأجناد وعدة الطراد :
ويعنّعا من كل ثغر نخافة أقب كسرحان الإباءة ضامر
وكل سبوح فى العنان كأنها إذا اغتسلت بالماء فتخاء كاسر^(٣)

ويصف الفرس أيضاً بقوله :
أما إذا استقبلته فكأنه جذع سما فوق النخيل مشدّب
وإذا عرضت له استوت أقرابه وكأنه مُستدبراً مُتصوب^(٤)
ويشبه رءوس الخيل برءوس النساء :

وإننا نفود الخيل تحكى رءوسها رءوس نساء لايجدن فواليا^(٥)
ثم هو لا يغادر المعركة حتى يرى الخيل وقد تسربت بالدماء ، وعثرت بالأشلاء ، واحتز هو
رأس زعيم العدو :

حتى رأيت الدّم بعد سوادها همر الجلود خضين من جرحاها
يعثرن فى نقع النجيع جوافلا ويطآن من همى الوغى صرعاها
فرجعت محمودا برأس عظيمها وتركتها جزراً لمن ناواها^(٦)
ويصور أيضاً فى وصف حصانه فى المعركة هذه الصورة التشبيهية الرائعة :
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان يشر فى لبان الأدهم

(١) أبو على القالى / الأملال ج ٢ ص ١٦٥ ، الديوان ص ٥٠ .

(٢) عمر الدسوقي / الفتوة عند العرب ص ٤٣٤ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ج ١ ص ٨٢٥ .

(٣) محمود شكرى الألوسى / بلوغ الأرب ج ٢ ص ٧٨ ط . الرحمانية .

(٤) محمود شكرى الألوسى / بلوغ الأرب ج ٢ ص ١٠١ ط الرحمانية .

(٥) « الديوان » ص ١٩٣ .

(٦) « الديوان » ص ١٨٥ .

مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِبُغْرَةٍ وَجْهَهُ وِلْيَانُهُ حَتَّى تَسْرِبَلُ بِالْدَمِ^(١)
 وهو يعرف لنفسه مكانها في الحروب ، ومنازلته للأقران ، وخطفه أرواحهم عند الطعان كما
 أنه يتصور نفسه لا ساقى الموت ولكن الموت يعينه يصيب فيصمى :

وهو يترك الأعداء في تحبظ يدورون حول قتلاهم مبهورين مأخوذون :
 تَرَكْتُ بَنِي الْمُهْجِيمِ لَهُمْ دُورًا إِذَا تَمَضَى جَمَاعَتُهُمْ تُعْوَدُ^(٢)

وعفاهه عن المغانم معروف دائماً يخبِر به من شهد وقائعه :
 يَخْبِرُكَ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي أَغْشَى الْوَعْيَى وَأَعْفُ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

ولم يوهن عزيمته ما شهد ويشهد من ممارسة الحرب والطعان ، ولكن ما أثر فيه إنما هو
 تقادم الزمن وهجوم المشيب ، ومن أمثال العرب ، إذا طال عمر الرجل أن يقولوا : لقد أكل
 عليه الدهر وشرب ، وهم يريدون أنه أكل وشرب دهرًا طويلاً :
 فَهَا أَوْهَى مِرَاسِ الْحَرْبِ رُكْنِي وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِنْ زَمَانِي

وهو كعادة أهل الجاهلية يصف زجر الغراب فيقول :
 حَرَقَ الْجَنَاحَ كَأَنَّ لِحْيِي رَأْسَهُ جَلْمَانَ بِالْأَخْبَارِ هَشَّ مُوَلَعٌ^(٣)
 ثم هو إذا اعتذر وفي العذر عند من يقبل العذر :
 لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْدَرْتُ لَوْ تَعَذَّرْتَنِي وَخَشَّصْتِ صَدْرًا جِيهَ لِكَ نَاصِعٌ^(٤)

وهو إذا سخر عنف في سخريته وترك خصمه أضحوكة العرب ، وإذا استمعت إليه هاجباً
 عمارة بن زياد الذي كان ينفس على عنزة منزلته العظيمة ، ويحسده على مكانته البارزة ،
 أدركت طرافة القول في تجسيم مظاهر الخوف في هذا النموذج البشري المرتعد :
 أَحْوَلِي تَنْفُضُ أَسْتِكَ مِذْرُوبَهَا لِتَقْتَلَنِي فَهَأَنْذَا عُمَارَا
 مَتَى مَا تَلْقَانِي فَرْدَيْنِ تَرْجُفُ رَوَانِفِ الْيَتِيمِكِ وَتَسْتَطَارَا^(٥)

(١) أسامة بن منقذ الكتاني / لباب الآداب ص ٤٦٩ - واللبيان : الصدر وتروى : بغيرة نحره .

(٢) ابن قتيبة / اشعر والشعراء - ج ١ ص ١٤٨ .

(٣) أبو تمام / شرح ديوان الحماسة ، صفة أبي علي بن محمد الحسن المزروعى ونشر أحمد أمين وعبد السلام هارون - القسم

الأول ص ٤٢٥ مطبعة دار التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٦ .

(٤) أبو عتبان بن بحر الجاحظ / البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون - ج ١ ص ٨٢ .

(٥) أبو علي الفارسي « الأمالي » - ج ١ ص ١٠٧ .

(٦) المذروان : طرفا الإليتين الروانف : أسفل الإلية .

وليس عنتره بالسفيه الطائش ، فإنه ليعرف مساوى الحرب ويقدر وملايتها ، ويعتقد أن حرب داحس والغبراء ستجر على قومه مصائب كثيرة لم تكن لها مبرراتها ، ويظهر ذلك واضحاً في رثائه لصديقه النابه :

فَلَلَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِنْ مِثْلِ مَالِكِ عَقِيرَةَ قَوْمٍ أَنْ جَرَى فَرَسَانِ
فَلَيْتَهُمَا لَمْ يَجْرِيَا قِيدَ غَلْوَةٍ وَلَيْتَهُمَا لَمْ يُرْسَلَا لِرَهَانِ
لَقَدْ جَلَبَا حِينًا وَحَرْبًا عَظِيمَةً تُبِيدُ سَرَاةَ الْقَوْمِ مِنْ غَطْفَانِ

وفرائد عنتره في هذا المجال وفيرة ، وليس ما نهدف إليه الاستقراء والاستقصاء ، ولكنه التدليل والتمثيل^(٣) .

بطولته وبعض أخباره :

تنحصر فلسفة المجد عند عنتره في مظاهر القوة والبطولة ، والفتك بالأعداء ، وإبرادهم موارد الهلكة والفناء ، وهي فلسفة ليست بالغريبة على عنتره ، بل إنها لتستمد أصولها من بيئته ونشأته وتفرع من جذور وشائج قبلية :

دَعُونِي فِي الْقِتَالِ أُمَّتٌ عَزِيزًا فَمَوْتُ الْعَزْزِ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةِ
لَعْمَرِي مَا الْفَخَارُ بِكَسْبِ مَالٍ وَلَا يَدْعَى الْغَنَى مِنَ السَّرَاةِ

وقد احتل عنتره مكانه فارساً لقبيلة عبس على ما فيها من عديد الفرسان ، وأنجاد^١ الفتيان ، ولكنها عرفته فأحلته مكان القيادة في حربها ونزالها .

قال عمر بن الخطاب للحطيئة العبسي : كيف كنتم في حركم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس بن زهير فينا ، وكان حازما فكنا لا نعصيه ، وكان فارسنا عنتره ، فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا أحجم ، وكان فينا الربيع بن زياد ، وكان ذا رأى فكنا نستشيريه ، ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد ، فكنا نأتم بشعره ، فكنا كما وصفت لك ، فقال عمر : صدقت^(٤) .

(١) يرى مارون عبود في كتابه « أدب العرب » - ص ٧٨ طبع دار الثقافة - أن الكبت ومركب النقص كانا عامين من العوامل التي أترت في شخصية عنتره وأجبت طموحه إلى المجد وقول الشعر .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني الأغاني ج ٨ ص ٢٤٤ ولكننا يصدق في الربيع بن زياد قول أوس بن حجر في فضالة بن كوة .

الأمسى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا

(تراجع القصيدة كاملة في كتاب ذيل الأمل والنوادر للقالى ص ٣٤ ، ٣٥) .

ويعد عبد الملك بن مروان عنزة واحداً من أربعة هم في رأيه أشجع شجعان العرب وهم :
عباس بن مرداس السلمى ، وقيس بن الخظيم ، وعنزة ، ورجل من مزينة وذلك لقول
عنزة :

إِذ يَتَّقُونَ بِي الْأَسِنَّةِ لَمْ أَحْمِ عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَاقِقُ مَقْدَمِي^(١)

ومن مظاهر بأسه وشدته ، وقوة بلاغته وبيانه ، أن بنى عبس غزت بنى تميم ، وعليهم قيس
بن زهير ، فانهزمت عبس وطلبتها تميم ، فوقف لهم عنزة يدود عنهم غارة الثائرين ، ولحقتهم
الخيال ، وثبت عنزة لهم ثبات الصناديد فلم يصب مدبر منهم حتى استنقذهم من كبوتهم ، وكان
قيس بن زهير سيد عبس ، فهاله ذلك الموقف ، وساءه ، ولعل ذلك كان في مقتل أمر عنزة ،
فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء ، وكان قيس أكولاً ، فيبلغ عنزة
ما قاله ، فقال يعرض به في قصيدته :

طَالَ الثَّوَاءَ عَلَى رُسُومِ الْمَنْزِلِ بَيْنَ اللَّكِيكِ وَبَيْنَ ذَاتِ الْحَرْمَلِ^(٢)

يقول منها :

بَكَرْتُ تَخَوَّفِي الْحُتُوفَ كَأَنِّي	أَصْبَحْتُ عَنِ غَرَضِ الْحُتُوفِ بِمَعزِلِ ^(٣)
فَأَجَبْتُهَا أَنَّ الْمَنِيَّةَ مَنهْلُ	لَا يَدُّ أَنْ أَشْقَى بِكَأْسِ الْمَنهْلِ
فَأَقْنِي حَيَاءِكِ لَا أَبَالِكِ وَأَعْلَمِي	أَنِّي امْرُؤٌ سَامُوتٌ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ
إِنَّ الْمَنِيَّةَ لَوْ تَمَثَّلَ مَثَلٌ	يُمَثِّلُ إِذَا نَزَلُوا بِضَنْكَ الْمَنْزِلِ !
إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنصَباً	شَطْرِي وَأَحْمِي سَائِرِي بِالْمَنْصَلِ
وَإِذَا الْكَتِيبةُ أَحْجَمَتْ وَتَلَاخَطَتْ	أَلْفَيْتَ خَيْراً مِنْ مُعَمِّ مَخُولِ
وَالْحَيْلُ تَعْلَمُ وَالْفَوَارِسُ أَنَّنِي	فَرَّقْتُ جَمْعَهُمْ بِضَرْبَةِ فَيْصَلِ
إِذْ لَا أَبَادِرُ فِي الْمَضِيقِ فَوَارِسِي	أَوْ لَا أُوَكِّلُ بِالرَّعِيلِ الْأَوَّلِ
إِنْ يَلْحَقُوا أَكْرُرُ وَإِنْ يَسْتَلِحِمُوا	أَشُدُّ وَإِنْ يُلْفُوا بِضَنْكَ أَنْزَلِ
وَالْحَيْلُ سَاهِمَةُ الْوَجُوهِ كَأَنَّمَا	تَسْقَى فَوَارِسَهَا نَقِيعَ الْحَنْظَلِ
وَلَقَدْ أَيَّبْتُ عَلَى الطَّوِيِّ وَأَظَلَّهُ	حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

(١) يعقوب بن إبيكاربوس / نهاية الأرب في أخبار العرب ص ٢٠٦ - دار الطباعة العربية ، وأخم : أجن . .

(٢) الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ح ١ ص ٧٩٥ .

(٣) أبو عثمان بن بحر الجاحظ / البيان والتبيين تحقيق عبد السلام هارون ح ٣ ص ١٨٣ .

وإِذَا حَمَلَتْ عَلَى الْكَرْبَةِ لَمْ أَقُلْ بَعْدَ الْكَرْبَةِ لَيْتَنِي لَمْ أَفْعَلْ^(١)

وقد استخذى قيس وحسدة عنتره عند سماعهم هذا الشعر ، وشعروا يُنكرانهم حقوق عنتره وأفضاله عليهم ، فحففوا من غلوائهم وكفكفوا من كبريائهم .

وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي : ما أبالي من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقيني حُرَّاهَا وَهَجِينَاهَا ، يعنى بالحرَّين عامر بن الطفيل ، وعتيبة بن الحارث بن شهاب ، وباهجيين عنتره والسليك بن السليكة^(٢) .

وقال ابن الكلبي : عنتره وأمه زبيبة ، وخفاف بن عمير الشريدي وأمه نديبة ، والسليك بن عمير السعدي وأمه السليكة^(٣) .

لم يكف عنتره ما ناله في مجال النسب ، حيث استحلق بأبيه ، بل أراد أن يستهدف التشريف إخوة له من أمه ، كان أحبهم إليه أخاه « حنبلا » ، وأراد أن يلحقوا بقومه ، فدبر لذلك أمراً ، إذ أوعز إلى أخيه « حنبل » أن يرؤى مُهرأً له من اللبِن ، ثم يمر به عليه عشاء مع إخوته ، فإذا قال لهم : ما شأن مهركم متخذاً مهزولاً ضامراً ؛ ضرب « حنبل » بطن المهر بالسيف علامة الغضب والسخط مما يقول له عنتره ، وحين نفذ حنبل خطته سأله عنتره في جمع من القوم : ما شأن مهركم متخذاً عجر من اللبِن ؟ فأهوى حنبل بالسيف على بطن المهر فضربه فظهر اللبِن فقال عنتره :

أَبْنِي زَبَيْبَةَ مَا لِمَهْرِكُمْ مُتَخَدُّدًا وَيَطُونُكُمْ عُجْر
أَلَّكُمْ بِإِيغَالِ الْوَلِيدِ عَلَى إِثْرِ الشَّبَاهِ بِشِدَّةِ خُبْر

فاستلحق القوم حنبلا وإخوته وأصفوه بهم ، ولم يرض آخرون وإن لم يضر ذلك عنتره^(٤) .

خاض عنتره أشد المعارك وأعظمها هولاً ، وغزا عشرات الغزوات مع قومه ، كيف لا وهو صاحب حريمهم ، وقائد جيشهم ، ومضرب المثل في جميع أحياء العرب بإقدامه وجراته .

(١) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٤١ ، الديوان ص ١١٨ - ١٢٠ ، الأب لويس شيخو / شعراء النصرانية ح - ١ ص ٨٩٥ ، أسامة بن منقذ الكنانى / لباب الآداب ص ٢١٧ ، ٢٦٨ ، أبو على القالى / الأمانى ح ٢ ص ٧٢ ط دار الكتب ، الألويسى / بلوغ الأرب ح ١ ص ١٠٦ م الرحمانية .

(٢) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٤٦ ، ابن قتيبة / الشعر والشعراء راجع به ترجمة عمرو ص ٢٣٢ وما بعدها ، محمود الألويسى / بلوغ الأرب ح ٢ ص ١٢٩ ، أسامة بن منقذ الكنانى / لباب الآداب تحقيق أحمد شاكر ص ١٨١ .

(٣) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٤٠ ، ابن قتيبة / الشعر والشعراء ح ١ ص ٢٠٥ .

(٤) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

وقد تجلّت فروسيته ومهارته في الحرب والطراد أعظم ما تجلّت في معارك « داحس والغبراء » ، وما جرته من أيام هول وفزع ، سالت فيها الدماء أنهاراً بين عبس وذبيان . ولا بد من الإتيان على خبر هذه الحرب التي كانت من أهم أسباب شهرة عنبرة الفوارس في ميادين القتال ، والتي كان أولها المراء والكلام كما هي عادة الحروب منذ بدء الخليقة حتى عصرنا هذا ، الذي هو الآن مسرح لأعنف حرب باردة ، تشنّ على أعصاب الشعوب ، وتعبث بآمالها ورغباتها ، وأخشى ما يخشاه دعاة السلام أن يعقبها اشتعال نار حرب عصرية ثالثة ، تستعمل فيها أفضع وسائل الدمار ، وأحدث ما أنتجه العقل البشري من أسباب الفتك ومخترعات الإبادة والفناء .

حرب داحس والغبراء :

وأبناء حرب داحس والغبراء كما يروها ابن الأثير^(١) ، هي أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، سار إلى المدينة ليتجهز لقتال بني عامر ، والأخذ بثأر أبيه ! فأتى أحيحة بن الجلاح يشترى منه درعاً موصوفة ، فقال له : لا أبيعها ، ولولا أن تدمني بنو عامر لوهبتها لك ، ولكن اشتراها بدينار لبون ، ففعل ذلك وأخذ الدرع وتسمى « ذات الحواشي » ، ووهبه أيضاً أحيحة أدراعاً وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه ، فاجتاز بالربيع بن زياد العبسي ، فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابته إلى ذلك ، فلما أراد فراقه نظر الربيع إلى حقيقته فقال : ماذا في حقيقتك ؟ فقال متاع عجيب لو أبصرته لراعك ، وأناخ راحلته فأخرج الدرع من الحقيبة ، فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها ، فكانت في طوله فمنعها قيساً ورغب في أخذها ، وترددت الرسل بينها ، فلما طالت الأيام على ذلك ، سير قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر غرة الربيع ، وسير الربيع إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلال وأمر أهله فظعنوا ، فبلغ الخبر قيساً فسار في أهله وإخوته ، فعارض طعائن الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته ، فقالت فاطمة أم الربيع : ما تريد يا قيس ؟ فقال : أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعي ، فقالت : هي في ضائي وخلّ عنا ففعل . فلما جاءت إلى ابنتها قالت له ذلك ، فحلف ألا يردّ الدرع . فأرسلت إلى قيس فأعلمته ، فأغار على نعم الربيع فاستاق منها أربعائة بعير وسار بها إلى مكة ، فباعها واشترى بها خيلاً ، وتبعه الربيع فلم يلحقه فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء ، وقيل : إن داحساً والغبراء كانا من خيل بني يربوع واستبأهما قيس ، وقيل : إن قيساً أنزى داحساً على فرس له فجاءت بمهرة فسأها الغبراء ، ثم إن قيساً أقام بمكة ، ولكن أهلها كانوا يفاخرونه ، فملّ مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم ،

وقال لإخوته إرحلوا بنا من عندهم والحقوا ببني بدر فإنهم أكفأؤنا في الحسب ، وبنو عمنا في النسب ، وأشرف قومنا في الكرم ، ثم نزل ببني بدر فنزل بحذيفة وأخيه حمل بن بدر ، وأقام فيهم ، وكان معه أفراس له ولإخوته وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك في نفسه .

وكتب الربيع بن زياد إلى حذيفة يقول :

أَلَا بَلَغَ بَنِي بَدْرٍ رُسُولًا عَلَى مَا كَانَ مِنْ شَنَا وَوَتْرٍ
بَأَنِّي لَمْ أَزَلْ لَكُمْ صَدِيقًا أَدَافِعُ عَنْ فَرَاةِ كُلِّ أَمْرٍ
فَأَلْبِئْتُمْ أَخَا الْغَدْرَاتِ قَيْسًا فَقَدْ أَفَعَمْتُمْ إِغَارَ صَدْرِي
فَحَسْبِي مِنْ حُذَيْفَةَ ضَمَّ قَيْسٍ وَكَانَ الْبَدءُ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ

فلم يتغيروا عن جوار قيس ، فغضب الربيع وغضبت عيس ، ثم إن حذيفة كره قيساً وأراد إخراجه فلم يجد حجة ، وعزم قيس على العمرة فقال لأصحابه : إني قد عزمت على العمرة ، فأياكم أن تلبسوا حذيفة بشيء ، واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع فأني قد عرفت الشر في وجهه ، وليس يقدر على حاجته منكم إلا أن تراهنوه على الخيل ، وكان ذا رأى لا يحطى فيما يريده وسار إلى مكة ، ثم إن فتى من عيس يقال له : ورد بن مالك ، أتى حذيفة فجلس إليه ، فقال له : لو اتخذت من خيل قيس فحلا يكون أصلاً للخيلك ، فقال حذيفة : خيلي خير من خيل قيس ولجأ في ذلك إلى أن تراهنا على فرس من فرس من خيل قيس ، وفرس من خيل حذيفة ، والرهن عشرة أزواد ، وسار ورد فقدم على قيس بمكة فأعلمه ، فقال له : أراك قد أوقعتني في بني بدر ، ووقعت معي وحذيفة ظلوم لا تطيب نفسه بحق ، ونحن لا نقر له بضيم ، ورجع قيس من العمرة ، فجمع قومه وركب إلى حذيفة وسأله أن يفك الرهن فلم يفعل ، فسأله جماعة فزارة وعيس فلم يجب إلى ذلك وقال : إن أقر قيس أن السابق لي وإلا فلا ، فقال أبو جعدة الفزاري :

أَلْ بَدْرٌ دَعَا الرَّهَانَ فَإِنَا قَدْ مَلَلْنَا اللَّجَاجَ عِنْدَ الرَّهَانِ
وَدَعُوعُوا الْمَرْءَ فِي فَرَاةِ جَارًا إِنْ مَا غَابَ عَنْكُمْ كَالْعِيَانِ
لَيْتَ شِعْرِي عَنْ هَاشِمٍ وَحُصَيْنٍ وَأَبْنِ عَوْفٍ وَحَارِثِ وَسِنَانِ
حِينَ يَأْتِيهِمْ لِحَاكِكُ قَيْسًا وَلصَّاحِ أَتَيْتِ أُمَّ نَشْوَانَ

وقال قيس : علام تراهنتي ؟ قال : على فرسيك داحس والغبراء ، وفرسي الخطار والحنفاء ، وقيل : كان الرهن على فرسين داحس والغبراء ، قال قيس : داحس أسرع ، وقال حذيفة : الغبراء أسرع ، وقال لقيس : إن بصرى بالخيل أثقب من بصرى : والأول

أصح^(١) . فقال له قيس : نفس في الغاية وارفغ في السبق ، فقال حذيفة : الغاية من أبلئ^(٢) إلى ذات الآصا وهو قدر مائة وعشرين غلوة ، والسبق مائة بعير ، وضمروا الخيل ، فلما فرغوا قادوا الخيل إلى الغاية ، وحشدوا ولبسوا السلاح ، وتركوا السبق على يد عقال بن مروان بن الحكم القيسي ، وأعادوا الأمناء على إرسال الخيل ، وأقام حذيفة رجلا من بني أسد في الطريق ، وأمره أن يلقي داحساً فيرمى به إلى أسفل الوادي ، فلما أرسلت الخيل سبقتها داحس سبقاً بيناً ، والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة على رأس الغاية في جميع قومها ، فلما هبط داحس في الوادي عارضه الأسدى ، فلطم وجهه فألقاه في الماء ، فكاد يفرق هو وراكبه ، ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل ، وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق ، واجتمع مع فرسى حذيفة ، ثم سقطت الحنفاء^(٣) وبقيت الغبراء والخطار ، فكانا إذا أحزنا سبق الخطار ، وإذا أسهلا سبقت الغبراء ، فلما قربا من الناس وهما في وعت من الأرض تقدم الخطار ، فقال حذيفة : سبقتك يا قيس ، فقال : رويدك يعلون الجدد فذهبت مثلاً ، فلما أستوت بهما الأرض قال حذيفة : خدع والله صاحبا ، فقال قيس : ترك الخداع من أجرى من مائة وعشرين . فذهبت مثلاً ، ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة ، ثم الحنفاء له أيضاً ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، فأخبر الغلام قيساً بما صنع بفرسه ، فأنكر حذيفة ذلك وأدعى السبق ظلماً وقال : جاء فرساي متتابعين ، ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حسبوا داحساً واختلفوا ، وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسره ذلك وقال لأصحابه : هلك والله قيس ، وكأني به إن لم يقتله حذيفة وقد أتاكم يطلب الجوار ، أما والله لئن فعل مالنا من ضمه من بد .

ثم إن الأسدى ندم على حبس داحس ، فجاء إلى قيس واعترف بما صنع فسيبه حذيفة ، ثم إن بني بدر آذوا قيساً وإخوته بالكلام ، فعاتبهم قيس فلم يزدادوا إلا بغياً عليه وبذاءة له ، وتناكر قيس وحذيفة في السبق حتى هما بالمؤاخذة ، فمنعهم الناس وظهر لهم بغى حذيفة وظلمه ، ولج في طلب السبق ، فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به ، فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله ، وعادت فرسه إلى أبيه ، ونادى قيس : يا بني عيس الرحيل فرحلوا كلهم ، ولما أتت

(١) ابن الأثير ح ١ ص ٣٦١ ط المطبعة الأزهرية ، ابن قتيبة الشعر والشعراء ح ١ ص ٢٠٦ ، ابن منظور / لسان العرب ح ٧ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، محمد جاد المولى وعلى البجوى ، وأبو الفضل إبراهيم / أيام العرب ص ٢٤٦ ، أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٥ ص ٣٣ ، التلقنندي صبح الأعشى ح ١ ص ٣٤٤ م الأميرية .

(٢) أبلئ - بضم الهززة وفتح اللام مقصورة - جبال سود واقعة في الشمال الشرقي من معدن بني سلم (مهد الذهب) .

(٣) ابن الكلبي / أنساب الخيل (ص ٢٥) ورد فيه : أن الحنفاء من خيل عطفان بن سعد أخت داحس لأبيه من ولد ذي العقال لحذيفة بن بدر الفزاري ، وأن الغبراء من خيل عطفان بن سعد كانت لقيس بن زهير بن جذيمة وهي حالة داحس وأخته لأبيه .

الفرس علم حذيفة أن ولده قتل ، فصاح في الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بني عبس فرأها خالية ، ورأى ابنه قتيلاً فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه ، وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً من فزارة وهو نازل فيهم ، فأرسل إليه قيس : إني قد قتلت بدر بن حذيفة ورحلت ، فالحق بنا وإلا قتلت . فقال : إنما ذنب قيس عليه ولم يرحل ، فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العودة إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل ، فلم يجبه ولم يمنعه . ثم إن بني بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس ، فبلغ مقتله بني عبس والربيع بن زياد ، فاشتد ذلك عليهم وأرسل الربيع إلى قيس عينا يأتيه بخبره فسمعه يقول :

أَيْنُجُوا بَنُو بَدْرِ بِمَقْتَلِ مَالِكِ وَيُخَذِلُنَا فِي النَّائِبَاتِ رَبِيعِ
وَكَانَ زِيَادٌ قَبْلَهُ يَتَّقَى بِهِ مِنْ الدَّهْرِ إِنْ يَوْمَ أَلْمِ فَطِيعِ
فَقُلْ لِرَبِيعٍ يَحْتَذِي فِعْلَ شَيْخِهِ وَمَا النَّاسُ إِلَّا حَافِظُ وَمُضِيعِ
وَإِلَّا فَمَا لِي فِي الْبِلَادِ إِقَامَةٌ وَأَمْرَ بَنِي بَدْرِ عَلَى جَمِيعِ

فرجع الرجل إلى الربيع ، فبكى الربيع على مالك وقال :

مَنَعَ الرُّقَادَ فَمَا أَعْمَضَ سَاعَةً جَزَعًا مِنَ الْخَبْرِ الْعَظِيمِ السَّارِي
أَقْبَعِدَ مَقْتَلَ مَالِكِ لِمَضِيعَةٍ يَرْجُو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الإِطْهَارِ؟
مَنْ كَانَ مَحْزُونًا بِمَقْتَلِ مَالِكِ فَلَيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ وَيُقْمِنُ قَبْلَ تَبْلُجِ الأَسْحَارِ
يَضْرِبَنَّ حَرَّ وُجُوهِنَّ عَلَى فِتَى ضَخْمَ الدَّسِيعَةِ غَيْرَ مَا خَوَّارِ

وهي قصيدة طويلة فسمعها قيس ، فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهو يصلح سلاحه ، فنزل إليه قيس ، وقام الربيع فاعتنقا وبكيا ، وأظهرا الجزع لمصاب مالك ، ولقي القوم بعضهم بعضاً . فقال قيس للربيع : إنه لم يهرب منك من لجأ إليك ، ولم يستغن عنك من استعان بك ، وقد كان لك شرّ يومى ، فليكن لى خير يوميك ، وإنما أنا بقومى وقومى بك ، وقد أصاب القوم مالكا ولست أهمّ بسوء ، لأنى إن حاربت بنى بدر نصرتهم بنوذيان ، وإن حاربتى خذلتى بنو عبس تجمعهم علىّ وأنا والقوم فى الدماء سواء ، قتلت ابنهم وقتلوا أخى ، وإن نصرتنى طمعت فيهم ، وإن خذلتنى طمعوا فىّ ، فقال الربيع : يا قيس إنه لا ينفعنى أن أرى لك من الفضل ما لا أراه لى ، ولا ينفعك أن ترى لى ما لا أراه لك ، وأنت ظالم ومظلوم ، ظلموك فى جوادك وظلمتهم فى دمانهم ، وقتلوا أخاك بانهم ، فإن يبؤ الدم بالدم فعسى أن

تلقح الحرب أقم معك ، وبعث قيس إلى أهله وأصحابه فجاءوا ونزلوا مع الربيع ، وأنشدهم
عترة بن شداد مرثيته في مالك - وكان صديقه - التي يقول منها :

فَللَّهِ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ مَالِكِ عَقِيرَةَ قَوْمٍ إِنْ جَرَى فُرْسَانَ
فَلَيْتَهُمَا لَمْ يَطْعَمَا الدَّهْرَ بَعْدَهَا وَلَيْتَهُمَا لَمْ يَجْمَعَا لِرِهَانِ
وَكُنَّا لَدَى الْهَيْجَاءِ نَحْمَى نِسَاءَنَا وَنَضْرِبُ عِنْدَ الْكُرْبِ كُلَّ بَنَانِ
فَسَوْفَ تَرَى إِنْ كُنْتُ بَعْدَكَ بَاقِيًا وَأَمْكِنِي دَهْرِي وَطُولَ زِمَانِي
فَأَقْسِمُ حَقًّا لَوْ بَقِيَتْ لِنَظْرَةٍ لَقَرَّتْ بِهَا الْعَيْنَانِ حِينَ تَرَانِي^(١)

وبلغ حذيفة أن الربيع وقيساً أتفقا عليه ، فشق ذلك عليه ، واستعد لليلاء ، وجمع الربيع
وقيس قومهما واستعدوا للحرب . فأغارت فزارة على بني عيس فأصابوا نعباً ورجالا ، فحميت
عيس ، واجتمعت للغارة والتقوا على ماء يقال له العذق ، وهى أول وقعة كانت بينهم ،
فاقتلوا قتالا شديداً ، وانهزمت فزارة وقتلوا قتلا ذريعاً ، وأسر الربيع بن زياد حذيفة ابن
بدر ، وكان حرّ بن الحارث العيسى قد نذر إن قدر على حذيفة أن يضربه بالسيف ، وله سيف
قاطع يسمى « الأصرم » ، فأراد ضربه بالسيف لما أسر وفاء بنذره ، فأرسل الربيع إلى امرأته
فغيبت سيفه وحذروه عاقبة فعله فأبى إلا ضربه ، فوضعوا عليه الرجال فضربه فلم يصنع
السيف شيئاً ، وبقي حذيفة أسيراً ، فاجتمعت غطفان وسعوا في الصلح فاصطلحوا على أن
يهدروا دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير ، ويعلقوا عوف بن بدر ، ويعطوا حذيفة بن بدر
عن ضربته التي ضربها حرّ مائتين من الإبل ، وأن يجعلوها عشراً كلها وأربعة أعبد ، وأهدر
حذيفة دماء من قتل من فزارة في الوقعة ، وأطلق من في الأسر ، فلما رجع إلى قومه ندم على
ذلك وساءت مقالته في بني عيس ، وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد فمضيا إلى حذيفة
وتحدثا معه ، فأجابها إلى الاتفاق وأن يردّ عليهما الإبل التي أخذت وكانت توالد عنده ، فبينما
هم في ذلك إذ جاءهم بنان بن أبي حارثة المرثى فقيح رأى حذيفة في الصلح ، وقال : إن كنت
لا بد فاعلا فأعطهم إبلا عجافا مكان إبلهم واحبس أولادها ، فوافق ذلك رأى حذيفة فأبى
قيس وعمارة ذلك ، وجعل سنان يحث بحذيفة على الحرب فتيسروا لها وظهر بغى حذيفة ،
وأغار حذيفة على عيس ، وأغار عيس على فزارة ، وتجدد القتال واستحر ، ولقى قيس في
فزارة جمعا فيهم مالك بن بدر فقتله .

ومضى ابن الأثير معدداً الوقائع التي شب أوارها بين الفريقين في هذه الحرب الضروس ،

(١) أوردنا هذه المرثية في باب المختار من شعر عترة وروى البيت الثاني : « فليتها لم يجرى نصف غلوة » .

وما اضطلمته من شباب وفتيان كان فيهم ابن لقيس بن زهير قتل غدرًا ، كما قتل أكثر أبناء حذيفة بن بدر .

وفي جفر الهباءة^(١) : كان مع حذيفة أخوه حمل بن بدر ، وأبنة حصن بن حذيفة وغيرهم ، وقد لجئوا هاربين فهجم عليهم قيس والربيع فناشدوهم الله والرحم فلم يقبلوا منهم ، ودار قرواش بن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه فذق صلبه ، وقتلوا حملاً أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه ، وكان عدد من قتل في هذه الموقعة من فزارة وأسد وغطقان يزيد على أربعائة قتيل ، وقتل من عبس ما يزيد على عشرين قتيلًا .

واجتمعت فزارة إلى سنان بن أبي حارثة المرّي ، وشكوا إليه ما نزل بهم ، فأعظمه وبعث رسله ليجمع العرب ويأخذ بئارى بدر وفزارة ، واجتمع من العرب خلق كثير لا يحصون ، وساروا إلى بني عبس : فلما بلغهم سيرهم قال قيس : الرأى ألا نلقاهم ونرسل الطعائن والأموال إلى بني عامر ، فإن الدم لنا قبلهم وناظلمهم القتال ، فإن أبوا إلا القتال قاتلناهم وصبرنا ، فإن ظفرنا فهو الذى نريد ، وإن كانت الأخرى كنا قد أحترزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية ، وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بني عبس على « ذات الجراجر » فاقتتلوا قتالا شديداً ، وظهرت في هذه الأيام شجاعة عنبرة بن شداد^(٢) ولام الناس سناناً على منعه الصلح ، فلما رأى فتور أصحابه رحل عائداً فلما عاد عنهم رحل قيس وبنو عبس إلى بني شيبان ابن بكر وجاوروهم ، وبقوا معهم مدة ، فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأموالهم ، فرحلوا عنهم فتبعهم جمع من شيبان فلقيتهم بنو عبس فانهمزمت شيبان ، ونزلوا بماء يقال له : « عرعر » عليه حى من كلب فركبوا ليقاتلوا بني عبس ، فبرز الربيع وطلب رئيسهم فبرز إليه واسمه مسعود بن مصاد فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض ، وثار به الربيع فقطع رأسه ، وانهمزت كلب وغنمت عبس أموالهم وذرارهم ، فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بني حنيفة وأقاموا ثلاث سنين فلم يحسنوا جوارهم ، وضيّقوا عليهم فساروا عنهم ، فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ففعلوا ، واستعانت بهم ضبة على حرب تميم فأعانوهم ، وحين انقضى الأمر تغيرت ضبة لعبس ، فحاربتهم عبس فظفرت وغنمت ، وسارت إلى بني عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب فسر بهم ليقوى على حرب بني تميم . ثم إن ذبيان غزت بني عامر وفيهم بنو عبس فاقتتلوا ، فهزمت عامر وأسر قرواش بن هنى العبسى ولم يعرف ، فلما قدموا به الحى عرفته امرأة فيهم ، فلما عرفوه سلموه إلى حصن بن حذيفة فقتله . ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتميم الرباب فبغت تميم عليهم

(١) ابن رشيقي / العمدنة تحقيق محيى الدين عبد الحميد - ح ١ ص ١٩٣ م حجازى .

(٢) ابن قتيبة / الشعر والشعراء - ح ١ ص ٣٠٦ .

فاقتتلوا قتالا شديدا ، وتكاثرت عليهم تيم فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة ، ورحلت عبس وقد ملوا الحرب ، وقلت الرجال والأموال ، وهلكت المواشى ، فقال لهم قيس : ما ترون ؟ قالوا : نرجع إلى إخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبي حارث المري ، وقيل : على هرم بن سنان بن أبي حارثة ليلا .. وكان عنده حصن بن حذيفة بن بدر ، فلما عاد ورأهم رحب بهم ، وقال : من القوم ؟ قالوا : إخوانك بنو عبس وذكروا حاجتهم ، فقال : نعم ، وكرامة وأخذهم إلى حصن ، فلما رأهم قال قيس والربيع بن زياد : نحن ركبنا الموت ، قال : بل ركبنا السلم ، ثم خرج معهم وقال لسنان : قم بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإني سأعينك ، ففعل ذلك وتم الصلح بينهم وعادت عبس^(١) . وقيل : إن قيس بن زهير لم يسر مع عبس إلى ذبيان ، وقال : لاتراني غطفانية أبداً وقد قتلت أخاها أو زوجها أو ولدها أو ابن عمها ، ولكني سأتوب إلى ربي ، فتنصّر وساح في الأرض حتى انتهى إلى عمان فترهب بها زمناً ، فلقيه حوج بن مالك العبدى فعرفه فقتله ، وقال : لا رضى الله عنى إن رحمتك ، وقيل : إن قيساً تزوج في النمر بن قاسط لما عادت عبس إلى ذبيان ، وولد له ولد اسمه فضالة ، فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم وعقد له على من معه من قومه وكانوا تسعة وهو عاشرهم .

هذا ما رواه ابن الأثير في تاريخه ، وقد عرض صاحب العقد الفريد أحمد بن عبد ربه في مصنفه لبعض مواقع حرب داحس والغبراء ، ومنها يوم المريقب^(٢) لبني عبس على فزارة وفيه يقول عنتره :

وَلَقَدْ عَلِمْتَ إِذَا التَّقَتْ فُرْسَانَهَا يَوْمَ الْمَرِيقِبِ أَنَّ ظَنُّكَ أَهْمَقُ

وذو المريقب من أرض الشربة إقتتل فيه الفريقان ، وقتل من بني فزارة عوف بن زيد بن عمرو بن أبي الحصين ، وضمضم أبو الحصين المرى قتله عنتره الفوارس ، وقد بلغ عنتره أن حصينا وهرما ابني ضمضم يشتهانه ويتوعدهانه ، فقال في معلقته التي سيأتى الحديث عنها فيما بعد :

وَلَقَدْ خَشِيتُ بَأْنَ أُمُوتَ وَلَمْ تَقْمِ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضَمِ
السَّاتِمَى عِرْضَى وَلَمْ أَشْتِمَهَا وَالنَّاذِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقَهَا دَمَى
إِنْ يَفْعَلَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسْرٍ قَشْمَمِ^(٣)

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٠ و ٢٦١ و ٢٦٢ و ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٦٧ المطبعة الأزهرية سنة

١٣٠١ هـ .

(٢) ابن عبد ربه / العقد الفريد - المطبعة الجبالية حد ٣ ص ١١٤ ، ٣١٥ .

(٣) عيد القادر البغدادي / خزنة الأدب حد ١ ص ٦٢ ، عيد الحميد يونس الهلالية في الأدب الشعبي ص ٢٤ ، ٢٧ .

والمرجح أن الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان هما اللذان سعيا للصلح بين عيس وذبيان -
وتحملا ديات القتلى بين الفريقين ، وفيها يقول زهير بن أبي سلمى من معلقته :
تَدَارَكْتُمَا عَيْسًا وَذَبْيَانَ بَعْدَ مَا تَفَانَوَا وَدَقَّوْا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَشْمٍ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عُقُوقٍ وَمَأْتَمٍ
عَظِيمَيْنِ فِي عَلِيَا مَعَدًّا وَغَيْرَهَا وَمَنْ يَسْتَبِحُ كَنْزًا مِنْ الْمَجْدِ يَعْظُمُ^(١)

تلك صورة مصغرة للحرب المشهورة بحرب داحس والغبراء ، يستشف منها القارئ كيف
كانت حال عيس قبيلة عنتره من الشماس والإباء ، فهي قبيلة تأنف الضيم ولاسيما من ذوى
القربى ، وكأنها تتأسى بقولة طرفة :

وظُلمَ ذَوَى الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمَهْنَدِ

ثم كيف استنزفت هذه الحرب دماءها وقواها ، واستهدفت زهرة شبابها وخيرة فتيانها ،
حتى لقد ظلت هذه الحرب طيلة أربعين عاما تنخر في شباب الفريقين وشيوخهم نخر السوس ،
وتصطلم أخضرهم ويابسهم ، وبرغم ما أرتته تلك الحرب الضروس من حزازات وضغائن ، وما
ولدته من ثارات وسخائم ، لم تستطع أن تقضى على شعور العصبية والعنصرية القبلى في نفوس
الفريقين ، فحلَّ بينهم السلم أخيراً محل الحرب ، وذاعت نفوسهم برد الوثام بعد الويل
والخصام ، ولا يعجبن القارئ أو يذهبن به الظن كل مذهب في بواعث هذه الحرب ودوافعها
ومقدماتها التي لا تهيئ للذهن نتائجها من المصائب والويلات ، فقد كان ذلك العصر عصراً
تهون فيه النفوس ، ولا يرضى فيه أحد بالاعتداء ، سواء على العرض أو المال أو الولد ، كما
أن كثيراً من غرائز النفوس وأحاسيسها لم تهذب ولم يسلس طابعها الخشن الفظ ، وإن كانت
هذه الحياة الجافة التي تصارعت فيها قوى الشر ، كانت حفيلة بمثل النجدة والحمية ، طافحة
بشعور التعاون والتأزر ، بل التسامح حين يشتد الخطب ويتفاقم الكرب .

ونكتفى بما أوردناه من صور لبطولة عنتره ، وما ذكرناه عن حرب داحس والغبراء التي
استنفدت أعظم جهوده في الحرب ، والتي كانت البوتقة التي انصهرت فيها مزاياه من
الشجاعة في القتال ، والصبر على مر الكفاح في سبيل نصره مبادئ قومه ورفع شأن قبيلته .
ولقد جاءت حرب داحس والغبراء في مدة لا تبعد كثيراً عن عقد الصلح في حرب
البسوس - وهي أقدم حروب البدو وأشهرها - ويعد الدكتور فيليب حتى عنتره الذى اشتهر

(١) الأب لويس شيخو / شعراء النصارية ج ١ ص ٧٦ ، أبو زيد القرشى / جهرة أشعار العرب م الرحمانية ص ٧٠ ،

٧١ ، أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربى طبعته سادسة ص ٤٣ ، ٤٦ .

أمره فيها شاعراً ومحارباً (AGHILLES) عصر البطولة العربي^(١) - تشبيهاً ببطل اليونان الشهير الذي سجلت أبحاثه إلياذة هوميروس الشاعر الخالد .

دفاعه عن اللون الأسود :

ولد عنتره أسود البشرة أبنوسى الأديم ، وكانت أمه أمة اختارها أبوه .
على أن سواد اللون لا يعيب صاحبه ، وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه :
« لافضل لأبيض على أسود ولا لعربي على عجمي إلا بالتقوى » فسواد اللون لا يضر
الشخص أبداً ، والتقى الأسود في الإسلام خير ألف مرة من الأبيض عالى الحسب والنسب ،
إذا كان لايرعى حرمت الدين : لذلك فإن من عابوا على عنتره سواد لونه إنما يشعرون
بمركب نقص خبيث ، فقد بهرتهم شجاعته ، وهالهم فتاؤه ومضاؤه وسعة حيلته في الحرب ،
وحنكته في ميادين الشرف والفخار ، فحاولوا أن يشعروه نقصاً ، وأن يقللوا من أهميته ، ولم
يعرفو أنهم بذلك قد زادوه مضياً في إدراك المجد ، وحفزه على السير قدماً في اكتساب محامد
جديدة ومناقب حميدة ، ثم هم لم يسلموا من لسانه الذرب الحاد ، ومن بيانه الساحر القاطع ،
فقد دافع عن لونه أحر دفاع ، وأشاد بما هو عليه من سجايا نبيلة وخلائق فاضلة ، تفوّض
مايتوهونه من نقص ، بل مايريدون إلصاقه به من معائب ، فهو يدافع عن لونه بما يشبهه هذا
اللون مما هو محبوب مرغوب فيه ، وبما له من فعال غر وأيد بيض وترفع عن الدنيايا .
وقول الأعداء لايقصد به إلا الإثارة والإيذاء ، وهل نسى من يعيره من قومه بسواد لونه
فعالهم ودكن خصالهم وخبت طواياهم :

أما هو فإن يكن أسود ، فخصاله بيض نقيه تشف عن طُهر قلبه وصفاء سريرته .
كما أنه رفيع المكانة دائماً ، عزيز الجانب أبداً ، فلن يضيره سواد جلده شيئاً .
ثم ماذا يقول الأعداء ؟! لقد قصرت همهم عن همته ، فهم يؤذونه في لونه واسم أمه : وهو
إمعانا في كيدهم سيمضى في طريقه إلى نيل كل مجد ، وحياسة كل تشريف ، وليصنعن
العجائب ، وليفرعن بلاغة الفصحاء ويخرسهم بفصاحته ولسنه .

وحقاً لقد فعل من العجائب ما ليس عليه من مزيد ، وما جعل لاسمه دويماً شغل الآذان .
وليس عنتره بدعاً في لونه ، فهناك عشرات وعشرات غيره من أغربة العرب الذين
جاءهم سواد اللون من قبل أمهاتهم ، ومنهم : خفاف بن ندية ، وأبو عمير بن الحباب ،
والسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، ولكنه مخضرم قد ولى في الإسلام . ومن
الإسلاميين : عبد الله بن خازم ، وعمير بن أبي عمير ، وهام بن مطرف ، ومنتشر بن وهب ،

(١) فيليب حتى / تاريخ العرب ج ١ ص ١٢١ - ١٢٢ (مطول) .

ومطر بن أوفى ، وتأبط شراً ، والشنفرى^(١) . بل إن من العبيد من شرفوا وزاد قدرهم على الأحرار ، كبلال رضى الله عنه مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وكأخيه وقد تزوجا من بنى ليث الذين يعدون من أحسن الفرسان .

على أن عنتره إذا كان ضيق الصدر في مبدأ أمره بمن يلاحيه في سواد لونه ، فإنه قد اطمأن آخر الأمر إلى مكانته برغم آناف الحساد وكبت مقالة هؤلاء الخصوم ومن أجدد من عنتره في زمانه بأن يكون قوى الثقة بالنفس ، شاعراً بعظمة شخصيته وعلو شأنه ومكانه ؟ كما أن من يشنؤه بسواد اللون ، وهو صفة ظاهرية لا تمت بحال إلى جوهر أخلاقه وخلائقه ، ولا تصل إلى أغوار سجايه ومزايه ، فإنه لأقوى منه حجة وأبلغ عملاً فيما أتاه ويأتيه من صنوف المكارم وألوان المفاخر والمآثر .

وإن كانت أمه أمةً فما يلقح الطعان ويبرز على الأقران كآبن الأمة ، وإنه لفاخر بها برغم سوادها ومغيظ أعداءه وشائنيه ، وإنه ليجد في صفاتها ميزات تقدر لا عيوباً تستكره . ونختتم هذا الفصل من الكتاب بما أورده شوقي من شعر رقيق على لسان « عبلة » وهي تخاطب أباهاً مدافعة عن لون فارس أحلامها ، معترّة به ، مفاخرة بشجاعته وشهرته وكرمه ، وذلك في مسرحيته الشعرية الرائعة « عنتره » :

أَبِي عَنْتَرَةَ لَيْسَ بِزَنْجِيٍّ وَلَا عَبْدٍ
وَلَمْ يُجْلِبْ مِنَ التُّوبِ وَلَمْ يُحْضِرْ مِنَ السُّنْدِ
وَلَكِنْ مِيسَمِ اللَّوْنِ كَمَثَلِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ
فَتِي كَالْأَسْمَرِ اللَّدْنِ جَمِيلِ الشُّعْرِ الْجَعْدِ
شُجَاعُ ذَائِعِ الصُّيْتِ جَوَادُ وَاسِعِ الرَّفْدِ^(٢)

المرأة في حياته :

لم تخل حياة أى شاعر فذ من امرأة تصقل شماسها ، وتلين عنفها ، وتناغم عواطفها ، وتلهم الشاعر رفاق المعاني ، وتفجر في نفسه مصادر الوحى ، وفي قلبه ينابيع الحب . ولقد ذاق عنتره كما أسلفنا من الغرام أعنفه ، فقد أحب أعظم الحب وأشدّه ابنة عمه « عبلة » بنت مالك ، وكانت من أجمل نساء قومها ، وأبعدهم صيتاً في اكتمال العقل ونضارة الصبا وشرف المحتد ، ويقال : إنه كان من أقسى ما يضايق هذا الحب صلف أبيها مالك ،

(١) الفيروز بادى / القاموس المحيط ج ١ ص ١١٠ مادة (غرب) مطبعة دار المأمون .

(٢) أحمد شوقي / مسرحية عنتره ص ٦٥ .

وكبرياء أخيها عمرو ، وما كانا يقذفان به عنتره من النظر الشزر إذ يسمعان نبأ هذا الحب ، ويصيخان إلى أحاديث السَّار عنه ؛ وربما زاد من وقْدَة غيظها وغلوهما في تعالى على عنتره أنه أذاع بحبه ، وملأ الأسباع شعراً فيه ، وأنه برغم لصوق نسبه بها كانا لا يزالان ينظران إليه نظر المولى إلى العبد ، لاعتقادها أنه لولا ظروف قاهرة لما كان لعنتره أن يشرف وينسب ؛ على أن ما يعجب له الباحث ، هو أن أكثر المصادر العربية قد خرست عن ذكر عبلة إلا في مجال تشبيب عنتره بها وحبه لها ، فلم تنوه عما إذا كان قد تزوج بها أم بقي حبه معلقاً وتزوجت سواه ، كما هو حال جميل بثينة ، وكثير عزة ، وطبيعي أن قصة عنتره الشعبية قد أشارت إلى زواج عنتره بعبلة وتمتعه بوصالها ، وإن كان هذا القول لا يقدم أو يؤخر إن لم يدعمه سند قوى من سيرته .

وقد ذهب الأستاذ عمر الدسوقي في كتابه « الفتوة عند العرب » إلى أن عنتره لم يتزوج عبلة ، بل تبتل في محراب حبيها ، وأن أباهم وأخاهم منعاه زواجها وأبياً عليه مصاهرتهما ، وأنها زوّجت أحد أشرف قومها ، وزفت إليه على الرغم من عنتره^(١) . بيد أن الأستاذ الدسوقي لم يذكر - صراحة - المصدر الذي استقى منه ذلك لكي يرجع إليه القارئ ، ويشايح الأستاذ الباحث في ترجيحه هذا الرأي إذا كان وليد استقراء جدير بالاعتبار أو يخالفه فيه . وربما كان ذهب الأستاذ الدسوقي إلى أن عنتره قد خذل في نيله عبلة ، إنما هو قياس على عادة العرب من منعها بناتها أن يزفنن إلى من يشبهن قبل الزواج ، وأن ما عصف برأس أبيها وأخيها من ريع الخيلاء لما أصاب كرامتها كان السبب في رفضها خطبة عنتره وإيثارها سواه بعبلة برغم هواها المتبادل .

على أنني أميل إلى الرأي القائل بأن عنتره قد تزوج عبلة لعوامل وأسباب منها : أنه قد استلحق بنسب أبيه فزال عنه هجنة النسب ، وأصبح ابن عم لعبلة بأصرة القرابة الوثيقة ، ثم إنه كان أشهر فرسان القبيلة ، بل فرسان العرب وفتوته وفروسيته مما لا يغفله من حسابه من يريد زواج عبلة ، إذ أنه سيتعرض للانتقام عنتره ونأره لكرامته وحبه ؛ ثم إن ذلك من الأسباب التي ترغبت في مصاهرته . فمهما يكن من تعالى والد عبلة وأخيها فعظم شأن عنتره وبلوغه مبلغ الذروة في قومه وبين أنجاد العرب وأجوادهم ، كل ذلك يحفزها إلى تزويجها بعبلة . وثمة من الأسباب شعر عنتره ، فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر عبلة والتشبيب بحاسنها ، وتذكرها حتى في مواقف العراك والاشتباك ، وهذا الغزل الشائق الموصول في كل حين مما تأباه عليه شيمته العربية ، وبدواته الأبية لو كانت عبلة قد زوّجت لغيره وألحقت بكنف سواه ، فإن من اللازب والواجب عليه حينئذ أن يتناسى حبه ما أمكنه التناسي ، وأن

(١) عمر الدسوقي / الفتوة عند العرب ص ٤٢٤ و ٤٢٧ .

يقلل إن لم يكف عن التغزل بها في أشعاره حرصاً على كرامة رجلها وعلى شرفها ، وهى ابنة عمه لصقاً ، وما يجرح شعورها وشعور عمه أبيها بما لا يتواءم مع طبيعته وسجاياه في رفع الغبن عن الغير ، وإنصاف المظلوم من الجور ، فكيف يظلم إذن ذوى قرابته الأذنين :

وظَلَمَ ذَوَى الْقُرْبَى أَشَدَّ مَضَاذَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحَسَامِ الْمَهْدُ

وحاشا أخلاق عنتره أن تتدفى إلى مثل هذا الإِسْفَافِ .

وإذا كان عنتره صاحب غزو وحرب وكاسب غنائم ، فإنه كثيراً ما كان يصيب في غزواته سبائاً جميلات من حرائر العرب ، والسبيبة دائماً تعد في الإماء المسترققات . ولكن عنتره كان إذا استبى إحدى الحرائر دفع إليها مهرها وتزوجها وأبى أن يسترقها كما يفعل غيره ، وتلك من الميزات التي سما بها على غيره^(١) .

ومن أجدر من عنتره بذلك وهو الذى ذاق الرِّقَّ وعجرفة السيادة ، وإن كانت عبلة بنت مالك هى دائماً الأثيرة عنده المفضلة لديه .

كما أنه لم يغتصب أنثى قسراً وإرغاماً بل إنه ليتزوج المرأة برضاء وليها :

مَا اسْتَمْتُ أَنْثَى نَفْسَهَا فِي مَوْطِنٍ حَتَّى أَوْفَى مَهْرَهَا مَوْلَاهَا

وهو ذو حفاظ وصيانة لأعراض غيره ، فإنه ليصل نساء قبيلته بيهاته وأياديه صلة أرحام ما دامت بعولتهن معهن ، ولكنه لا يزورهن في غيبة محارمهن ، ويربأ بنفسه عن مواطن الشبهات ومظان الرِّيب ، لأنه حافظ للجوار والحرمات :

أَغْشَى قَتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَغْشَاهَا
وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَّتْ لِي جَارِقِي حَتَّى يُسَارِقِي جَارِقِي مَأْوَاهَا^(٢)

إن عنتره ليكرّم المرأة تكريماً ، ويعرف لها منزلتها ، فلا يهدر كرامتها ولا يدوس شرفها ويحطم إنسانيتها .

وأما حليلته المفضلة عنده دائماً فهى عبلة ، لا يعدل بها سواها ، ولا ترقى إلى منزلتها لديه امرأة أخرى ، فقد أشرب حبها قلبه فلا يزاحمها فيه غيرها .

وعبلة تعرف لنفسها عنده هذه المكانة والمنزلة ، فهى قريرة العين بمنزلتها ، فخور بمكانتها من قلبه ، لأنه طوع يديها إما دعت للعظائم وملاذها إن مسها مكروه ، وأنه متجنب

(١) عمر الدسوقي / الفتوة عند العرب ص ٤٤٣ .

وراجع ص ٥ و ٦ و ٧ من كتاب « الجوارى » العدد ٥٩ من سلسلة « اقرأ » ففيها تحليل لمكانة « المرأة في نفس العربي » .

(٢) « الديوان » ص ١٨٥ .

ما يسوؤها حريص على عدم المساس بكرامتها وإحساسها :

ولئن سألتُ بذاك عَيْلَةَ خِبرْتِ أَلَا أُرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا
وأجيبها إِمَّا دَعَتِ لِعَظِيمَةٍ وَأَغْيَبَهَا وَأَعَفَّ عَمَّا سَاهَا^(١)

وذلك هو فصل الخطاب في عمق مودته ، وحرارة عاطفته ، وتوهج حبه وغرامه !

نهاية عنترَة

إن القاصَّ الشعبي الذي يسرد قصة عنترَة عليه أن يحسب ألف حساب لليلة التي يصادف أن يقص فيها نهاية عنترَة ، وكم يود من صميم نفسه لو عبر هذا الفصل الرهيب الذي يشعر وهو يرويهِ بالغمسة في حلقة ، ويرى الدموع تنهمر غزراً من عيون المستمعين ، ويستمع إلى التهنيدات والزيجرات وقذائف الشتم تنهال على من رمى عنترَة فأصاه .

لقد انتهت حياة عنترَة الحافلة بعد أن بلغ من العمر التسعين عاماً تقريباً ، فقد كانت منحصرة بين سنتي ٥٢٥ و٦١٥ ميلادية^(٢) ، وذكر صاحب الأعلام أن وفاته كانت في عام ٦٠٠ الميلادي وهو ما يوازي العام الثاني والعشرين قبل الهجرة . ومهما تكن الروايات الواردة في تاريخ وفاته ، فلعله قد متع بعمر طويل يستدل على ذلك بالحروب والغزوات التي غزاها ، وساهم في وقائعها كما يستند إليه بما أثر من شعره ومنه قوله :

فَمَا أَوْهَى مِرَاسِ الحَرْبِ رُكْنِي وَلَكِنْ مَا تَقَادَمَ مِنْ زَمَانِي

وقد ذكر صاحب الأغاني أن عنترَة أغار على بني نبهان من طيئ فطرد لهم طريدة وهو شيخ هُمٌّ كبير ، فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

حَظُّ بَنِي نَبْهَانَ مِنْهَا الأَثَلْبُ كَأَمَّا آثَارُهَا لَا تُحْجَبُ
آثَارُ ظَلْمَانَ بِقَاعٍ مُجْدَبٍ^(٣)

وكان وزر^(٤) بن جابر النبهاني في فتوة فرماه وقال : خذاها وأنا ابن سلمى ، فقطع مطاه -

(١) ساهأ أى ساهأ .

(٢) فيليب حتى / تاريخ العرب أحمد الزيات / تاريخ الأدب العربي .

(٣) محمد بن حبيب البغدادي ، تحقيق عيد السلام هارون / أساء المغتالين من الأنسراف في الجاهلية والإسلام ، وأساء من قُتل من الشعراء ، من مجموعة نواذر المخطوطات ص ٢١٠ ط أولى - لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ م . والأثلب : التراب والحجارة ، كناية عن الخيبة .

(٤) راجع مخطوط « مختصر جمهرة النسب » ص ١٢٩ - نسخة الإدارة الثقافية بالجامعة العربية (معهد المخطوطات) .

ظهره - ولكن عنتره تحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :
 وَإِنَّ أَبْنَ سَلْمَى عِنْدَهُ فَأَعْلَمُوا دَمِي وَهَيْهَاتَ لَا يُرَجَى ابْنُ سَلْمَى وَلَا دَمِي
 إِذَا مَا تَمَشَّى بَيْنَ أَجْبَالِ طَيْئِي مَكَانَ الثُّرَيَّا لَيْسَ بِالْمَتَهَضِّمِ
 رَمَانِي وَلَمْ يَدْهَشْ بِأَزْرَقِ لَهْدَمِ عَشِيَةِ حُلُومَا بَيْنَ نَعْفٍ وَمُخْرَمِ

قال ابن الكلبي : وكان الذي قتله يلقب بالأسد الرهيص .
 وأمّا أبو عمرو والشيباني ، فذكر أنه غزا طيناً مع قومه فانهزمت عبس ، فخر عن فرسه ولم
 يقدر من الكبر أن يعود فيركب ، فدخل دغلا وأبصره طليعة طيئ فنزل إليه وهاب أن يأخذه
 أسيراً فرماه وقتله .
 وذكر أبو عبيدة أنه كان قد أسنّ واحتاج وعجز لكبر سنه عن الغارات ، وكان له على
 رجل من غطفان بكر ، فخرج يتقاضاه إياه ، فهاجت عليه ربيع من صيف وهو بين شرح
 وناظرة - ماء ان لعبس - فقتلته ووجد بينها ميتاً .
 وروايات أكثر المصادر العربية لا تخرج عما رواه صاحب الأغاني ، وربما كان ذلك لأن
 أكثرها مستقى من الأغاني^(١) .

على أن الرواية المتداولة والتي هي أقرب إلى المرجح من الروايات ، أن عنتره قد مات
 مقتولاً إثر رمية السهم الذي فوق إليه ممن يلقب بالأسد الرهيص ، ونظراً لكبر سنه وكلال
 بصره فإنه لم يستطع أن يتحامي الرمية من السهم المراس الغادر الذي سدد إلى ظهره^(٢) .
 والأدب الرفيع لا يستطيع أن يغفل سحر الخيال البارع في الميتة التي اختارها القصاص
 لعنتره ختاماً لحياته ، وكان « لامتريين » الشاعر الفرنسي الكبير معجباً أشد الإعجاب بالقدرة
 الفنية في هذا الختام ، الذي يتلخص في أن عنتره البطل حينما أصيب بالسهم المسموم الذي
 ريشه إليه الأسد الرهيص ، أحس أنه ميت لا محالة ، وحينئذ اتخذ خطة الليث المناضل حتى
 بعد مماته فقد ظل ممتطياً صهوة جواده مرتكزاً على رمحه السمهرى ، ثم أمر الجيش بأن يتراجع
 القهقري وينجو من بأس الأعداء ، وظل في وقفته تلك حامياً ظهر الجيش والعدو يبصر الجيش
 الهارب ، ولكنه لا يستطيع اللحاق به لاستبسال قائد البطل في الذيادة عنه ، وقوفه دونه ،
 وهيبته الفارس المحارب حتى نجا الجيش وأسلم عنتره الروح ، ولكنه بقي في مكانه متكئاً على
 الرمح وظل جواده ثابتاً ، فلما طال وقوفه وجاوز الحد المألوف ، ارتاب العدو في الأمر وشك في

(١) أبو الفرج الأصفهاني / الأغاني ح ٨ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ .

أبو محمد مسلم بن قتيبة / ح ١ ص ١٧٣ ، الأب لويس شيخو / ح ١ ص ٧٩٨ ، خير الدين الزركلي ح ٢ ص ٧٤٤ .
 عبد القادر بن عمر البغدادي / ح ١ ص ٦٢ ، أحمد حسن الزيات / تاريخ الأدب العربي ص ٤٨ طبعة سادسة .

(٢) الأمدى / المؤلف والمختلف ، ص ٩٩ طبعة القدسي .

مصير البطل ، فأطلق إلى الجواد حجراً لتهيجه ، وحين بصر بها الجواد شب براكبه فخر الفارس على الأرض بعد أن ثار لنفسه بإضاعته فرصة النصر على عدوه وحماية قومه من برائته .

ولكن ما يغلب على الظن أن القاص إنما استوحى هذا الختام الماهر من حكاية موت النبي سليمان بن داود عليهما السلام أمام عماله من المردة المسخرين من الجن ، والذي قصته الآية الكريمة في أبلغ وصف معجز : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾^(١) . وهكذا انتهت حياة عنتره .

انتهت حياة أشهر فارس في الجاهلية ، وأحذق من ضرب بالسيف ، وطعن بالرمح ، وقاد الكتائب فيها ، وخاض غمار الحروب منصوراً مظفراً .
انتهت حياة عنتره بعد أن ترك في سمع الدنيا دويماً خالداً ، وبني لقبيلته مجداً سيبقى مآكراً الجديدان ، وما تعاقب الملوان .

والبطل الذي كان اسمه يرعب الأقيال ، وذكره يفرع القساورة الأنجاد ، أوى هادئاً إلى شقّ من الأرض صار بعده لحداً مراراً .